



الذكاء الاصطناعي وفوضى القرار الاستراتيجي هل دخل النظام الدولي مرحلة الصراع الخوارزمي؟

بقلم

نور نبيه جميل

باحثة في مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية



تأسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية عام 2008 بمدينة بابل (الحلة)، وحصل على شهادة التسجيل من دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة 1Z71874 بتاريخ 2012/12/25، بوصفه مركزاً علمياً بحثياً يهتم بدراسة الموضوعات السياسية والاجتماعية، فضلاً عن الاهتمام بالقضايا والظواهر الراهنة والمحتملة في الشأن المحلي والإقليمي والدولي، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

- لا يجوز إعادة نشر أي من هذه الأوراق البحثية الا بموافقة المركز، وبالإمكان الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً.
- لا تعبر الآراء الواردة في الورقة البحثية عن الاتجاهات التي يتبناها المركز وإنما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

للتواصل

مركز حمورابي

للبحوث والدراسات الاستراتيجية

العراق - بغداد - الكرادة

+964 7810234002

hcrsiraq@yahoo.com

www.hcrsiraq.net

مقدمة

شهد النظام الدولي خلال السنوات الأخيرة تحولات متسارعة لم تعد تقتصر على إعادة توزيع القوة بين الفاعلين الدوليين، بل امتدت لتشمل إعادة تشكيل طبيعة القرار الاستراتيجي ذاته. فمع التطور المتنامي في تقنيات الذكاء الاصطناعي، لم يعد هذا الأخير مجرد أداة تقنية مساعدة، وإنما أصبح عنصراً مؤثراً في هندسة الإدراك الاستراتيجي، وتسريع دورة القرار، وإعادة تعريف العلاقة بين الإنسان والآلة داخل البيئات الأمنية والعسكرية المعقدة. وقد دفعت هذه التحولات عدداً متزايداً من الباحثين ومراكز الدراسات الاستراتيجية إلى إعادة النظر في طبيعة الصراع الدولي المعاصر، ولا سيما في ظل تنامي الاعتماد على الأنظمة الذكية في مجالات الاستخبارات والتحليل والإنذار المبكر وإدارة العمليات العسكرية.

غير أن الإشكالية الأساسية لا تكمن في التطور التقني بحد ذاته، بل في انعكاساته على استقرار القرار السياسي والعسكري داخل النظام الدولي. فالذكاء الاصطناعي لا يغيّر فقط أدوات الحرب، وإنما يعيد تشكيل الزمن الاستراتيجي الذي تتحرك ضمنه الدول. وكلما ازدادت سرعة الخوارزميات في إنتاج المعلومات والتوصيات، تقلص الزمن المتاح أمام صانع القرار البشري للتفكير والتقييم والاحتواء، الأمر الذي قد يدفع النظام الدولي نحو بيئة أكثر هشاشة واضطراباً. ومن هنا برز مفهوم "الفوضى الخوارزمية" بوصفه تعبيراً عن حالة تتجاوز الاستخدام التقني للذكاء الاصطناعي نحو تأثيره البنيوي في طبيعة التوازنات الدولية وآليات إدارة الأزمات.

وانطلاقاً من ذلك، تطرح هذه الورقة تساؤلاً محورياً يتمثل في مدى إسهام الذكاء الاصطناعي في إعادة تشكيل القرار الاستراتيجي الدولي، وما إذا كان العالم يتجه فعلاً نحو نمط جديد من الصراع يمكن وصفه بـ"الصراع الخوارزمي"، حيث تصبح الخوارزميات جزءاً أساسياً من عملية الإدراك والتقدير والاستجابة داخل البيئة الاستراتيجية الدولية. وسيتم تفصيل ما سبق حسب التقسيم الآتي:

أولاً: الذكاء الاصطناعي وتحول بنية القرار الاستراتيجي

ارتبط القرار الاستراتيجي تاريخياً بعناصر بشرية تتعلق بالإدراك السياسي والخبرة العسكرية والحسابات العقلانية للقادة، حيث كانت عملية اتخاذ القرار تعتمد على التقدير البشري للمخاطر والمصالح والقدرة على الموازنة بين الكلفة والعائد. إلا أن التطورات التكنولوجية الأخيرة، ولا سيما في مجال الذكاء الاصطناعي، أدت إلى تحولات جوهرية في طبيعة إنتاج المعرفة الاستراتيجية وفي آليات صناعة القرار داخل المؤسسات الأمنية والعسكرية. فالأنظمة الذكية أصبحت قادرة على تحليل كميات هائلة من البيانات في فترات زمنية قصيرة للغاية، كما باتت تمتلك القدرة على رصد التحركات العسكرية وتتبع الأنماط السلوكية والتنبؤ بالاستجابات المحتملة بصورة تتجاوز أحياناً قدرة الإنسان على الاستيعاب. وقد انعكس ذلك بصورة واضحة على طبيعة المؤسسات العسكرية الحديثة التي اتجهت بشكل متزايد نحو دمج الذكاء الاصطناعي في أنظمة القيادة والسيطرة والاستخبارات والإنذار المبكر، بما يسمح بتقليص زمن الاستجابة ورفع كفاءة العمليات العسكرية.

غير أن هذه التحولات تطرح معضلة استراتيجية معقدة، إذ إن زيادة سرعة التحليل والاستجابة لا تعني بالضرورة تعزيز الاستقرار. فعندما تصبح الخوارزميات قادرة على إنتاج الإنذارات والتوصيات بصورة شبه فورية، يجد صانع القرار السياسي نفسه تحت ضغط الزمن التقني، ما قد يدفعه إلى اتخاذ قرارات متسرعة استناداً إلى معطيات لم تخضع بعد للتقييم السياسي الكافي. وبهذا المعنى، فإن الذكاء الاصطناعي لا يعيد تشكيل أدوات القرار فحسب، بل يغير أيضاً العلاقة التقليدية بين الزمن والإدراك والاستجابة داخل البيئة الاستراتيجية.

وتزداد خطورة هذه التحولات في ظل التنافس المتصاعد بين القوى الكبرى، حيث أصبحت السرعة عاملاً مركزياً في تحقيق التفوق الاستراتيجي. فالدول لم تعد تتنافس فقط على امتلاك القوة العسكرية التقليدية، وإنما على امتلاك القدرة الأسرع في جمع البيانات وتحليلها وتحويلها إلى قرارات عملياتية. وهذا ما يدفع النظام الدولي تدريجياً نحو بيئة استراتيجية تتسم بالتسارع والتعقيد وارتفاع احتمالات سوء التقدير.

ثانياً: تحولات الردع في عصر الخوارزميات

اعتمد مفهوم الردع التقليدي، ولا سيما خلال مرحلة الحرب الباردة، على فرضية مفادها أن الأطراف الدولية تمتلك قدرات كافية من العقلانية والزمن لتقييم نتائج التصعيد وتجنب الوصول إلى المواجهة الشاملة. وقد ساهمت هذه المعادلة في خلق نوع من الاستقرار النسبي رغم حدة التنافس بين القوى الكبرى، إذ كان الإدراك المتبادل لحجم الخسائر المحتملة يمثل عاملاً كابحاً للتصعيد.

إلا أن دخول الذكاء الاصطناعي إلى البيئة العسكرية والاستراتيجية أدى إلى إحداث تحولات عميقة في مفهوم الردع ذاته. فالردع المعاصر لم يعد قائماً فقط على حجم القوة أو القدرة التدميرية، وإنما أصبح مرتبطاً بسرعة الاستجابة ودقة التحليل والسيطرة على الفضاء المعلوماتي. ومع تصاعد الاعتماد على الأنظمة الذكية، بدأت الدول الكبرى في تطوير بنى عسكرية تعتمد على الأتمتة والخوارزميات في مجالات الرصد والتتبع والاستهداف وإدارة العمليات، الأمر الذي أدى إلى تقليص الزمن الفاصل بين اكتشاف التهديد واتخاذ القرار بشأنه.

وتبرز خطورة هذا التحول في أن تسارع دورة القرار قد يؤدي إلى تقويض الاستقرار الاستراتيجي بدلاً من تعزيزه. فكلما تقلص الزمن المتاح للتقييم السياسي، ازدادت احتمالات سوء الإدراك أو التصعيد غير المقصود. وفي الأزمات الدولية الحساسة، قد يتم تفسير تحرك عسكري محدود أو نشاط تقني معين باعتباره مؤشراً على هجوم وشيك، ما يدفع الأطراف إلى اتخاذ إجراءات تصعيدية استباقية يصعب احتواؤها لاحقاً.

ويظهر هذا الأمر بوضوح في التنافس الأمريكي-الصيني حول تايوان، حيث تعتمد كل من واشنطن وبكين بصورة متزايدة على أنظمة الذكاء الاصطناعي في مراقبة التحركات العسكرية وإدارة أنظمة الإنذار المبكر وتحليل البيانات العملياتية. ورغم أن هذه التقنيات تهدف نظرياً إلى تعزيز الدقة وتقليل الأخطاء، إلا أن الاعتماد المفرط عليها قد يرفع احتمالات التصعيد نتيجة التفسير الخاطئ للمؤشرات أو التفاعل الآلي السريع مع الأحداث.

كما برزت هذه التحولات أيضاً في الحرب الروسية-الأوكرانية، التي كشفت عن الدور المتنامي للذكاء الاصطناعي في تحليل صور الأقمار الصناعية وإدارة الطائرات المسيّرة وتحديد الأهداف. غير أن هذه الحرب أظهرت في الوقت نفسه كيف يمكن لتضخم البيانات وتسارع المعلومات أن يخلقا بيئة شديدة التعقيد تجعل من الصعب على القيادات السياسية السيطرة الكاملة على مسارات التصعيد.

أما في منطقة "الشرق الأوسط"، فإن هشاشة البيئة الأمنية وتعدد الفاعلين المسلحين يزيدان من خطورة الاعتماد على الأنظمة الذكية. ففي حالات الصراع بين "إسرائيل" والجمهورية الإسلامية في إيران، قد يؤدي أي خلل تقني أو خطأ في تفسير البيانات إلى دفع الأطراف نحو تصعيد واسع، خصوصاً في ظل ضيق الزمن العملياتي وحساسية بيئة الردع الإقليمية.

ثالثاً: الفوضى الخوارزمية وإشكالية السيطرة على القرار

تكمن الإشكالية الأكثر خطورة في التحولات الراهنة في احتمال تآكل السيطرة البشرية التدريجية على عملية اتخاذ القرار الاستراتيجي. فمع تضخم حجم البيانات وتعقيد البيئات الأمنية، أصبحت المؤسسات العسكرية والأمنية تعتمد بصورة متزايدة على الأنظمة الذكية في إنتاج التقديرات وتحليل التهديدات وصياغة السيناريوهات المحتملة. ومع مرور الوقت، قد يتحول هذا الاعتماد من مجرد دعم تقني إلى نمط بنيوي يعيد تشكيل طبيعة الإدراك السياسي والعسكري.

وفي هذا السياق، يبرز مفهوم "الفوضى الخوارزمية" بوصفه تعبيراً عن حالة يصبح فيها إيقاع التفاعل التقني أسرع من قدرة المؤسسات السياسية على الاستيعاب والاحتواء. فالمشكلة الأساسية لا تتمثل في امتلاك الذكاء الاصطناعي لقدرات متقدمة، وإنما في أن هذه القدرات قد تدفع صناع القرار إلى الاعتماد المفرط على التقديرات الآلية، ما يضعف تدريجياً من دور التقييم البشري النقدي.

ويزداد هذا الأمر تعقيداً في ظل البيئة الدولية الحالية التي تتسم بتعدد الأزمات وتشابكها، حيث أصبحت القرارات الاستراتيجية تُتخذ تحت ضغط السرعة والبيانات الفورية والتوقعات الخوارزمية. وفي مثل هذه البيئة، قد تتحول الأخطاء التقنية أو التقديرات الخاطئة إلى عوامل قادرة على دفع الأزمات نحو التصعيد بصورة أسرع من قدرة الأطراف السياسية على التدخل والاحتواء.

ومن هنا، فإن أخطر ما قد يفرزه الذكاء الاصطناعي ليس "استقلالية الآلة" بالمفهوم المطلق، وإنما خلق بيئة استراتيجية تفقد فيها السياسة تدريجياً قدرتها على التحكم بإيقاع القرار. وهذا ما يفسر تصاعد المخاوف داخل الدوائر الاستراتيجية الغربية من احتمال دخول النظام الدولي مرحلة جديدة تتسم بارتفاع احتمالات سوء الإدراك وتآكل الاستقرار التقليدي للردع.

خاتمة

يتضح أن الذكاء الاصطناعي لم يعد مجرد تطور تقني داخل المجال العسكري، بل أصبح عاملاً مؤثراً في إعادة تشكيل بنية القرار الاستراتيجي الدولي. فالتطور المتسارع في قدرات التحليل والاستجابة والإنذار المبكر أدى إلى تقليص الزمن السياسي التقليدي الذي كانت تتحرك ضمنه الدول، الأمر الذي ساهم في خلق بيئة استراتيجية أكثر تعقيداً وتسارعاً.

وفي ظل التنافس المتصاعد بين القوى الكبرى، تبرز مخاوف متزايدة من أن يؤدي الاعتماد المفرط على الأنظمة الخوارزمية إلى إضعاف القدرة البشرية على الاحتواء والتقييم العقلاني، بما قد يدفع النظام الدولي نحو حالة من "الفوضى الخوارزمية" التي تتسم بارتفاع احتمالات سوء الإدراك والتصعيد غير المقصود.

وعليه، فإن التحدي الحقيقي في المستقبل لن يتمثل فقط في امتلاك تقنيات الذكاء الاصطناعي، وإنما في القدرة على ضبطها سياسياً واستراتيجياً بما يحافظ على التوازن بين السرعة التقنية والعقلانية السياسية، ويمنع تحول الخوارزميات إلى عامل جديد من عوامل عدم الاستقرار الدولي.